العبقرية والحـــــرمان

للأستاذ أنور المعداوى

خطر لى أن أتعقب بعض العبقريات فى أدب العالم لأرى إلى مدى يمكن أن ينتج البواقرة فى ظلال الحرمان ... ولعل شيخاً من شيوخ الأدب هو الذى دفعنى إلى أن أقف من هذا الموضوع موقف الباحث المتأمل ، حين ذهب فى مجلس جمع بينى وبينه إلى أن الحرمان يلهب فيلهم ، وأنه أكثر إثارة لمكامن الشعور فى النفس الإنسانية مما عداه من أسباب الترف والنعيم ... ولم يستعرض الأستاذ يومئذ بعض النماذج الإنسانية فى الأدب العالمى ليدلك على مقدار ما فى هذا الرأى من صواب ، ومدى ما فيه من حقيقة ؛ ذلك لأن الحديث كان حديثاً عابراً يأخذ بطرف من هنا وطرف من هناك ، ولا يكاد يستقر على ناحية بعينها ليناقشها فى صبر وأناة .

وانفض المجلس ، وخلوت إلى نفسى أقلب الرأى على وجوهه المختلفة . لقد كانت جذوره متأصلة فى نفسى ولكنها كانت تتزجج بين الشك واليقين .. أما اليقين فرجمه إلى أنى كنت أومن إيماناً عميقاً بأن الحرمان كما قال محدثى ، أكثر إثارة لمكامن الشعور فى النفس الإنسانية مما عداه من أسباب الترف والنعيم ، وكنت أرى أن الفنان الذى يعيش فى رحاب الحرمان يعيش متوثب الشعور دائماً ، تلتهب أفكاره من وقدة العاطفة واشتعال الوجدان ولا كذلك الفنان المترف ، لأن الترف فى أكثر حالاته أقرب إلى الدعة والخمول ، منه إلى سبر غور أو بلوغ أعماق !

هذا ما كنت أراه ، ولكن الشك الذى كان يلوح بين ثنايا اليقين مرجعه إلى أنى حين رحت أستعرض بعض النماذج فى أدب العالم ، وجدت أن بعض هذه النماذج يهز جانباً من جوانب

ولم يكن لهم بابن أبى نقـة ... واختلط عليهم الأمر ، وضاقت بهم أسباب الحيلة ، وكادت تقع الفرقة لولا أن كبيرهم (حيى بن أخطب) وقف بينهم قائلا : (كلا ، بل أنا مرسل إلى محمد أنا لا نخرج من ديارنا وأموالنا ... فليصنع ما بدا له . وما علينا إلا أن نرمّ حصوننا ، وننقل الحجارة إليها ، وعندنا من الطعام ما يكفينا سنة ، وماؤنا لا ينقطع ، ولن يحصرنا محمد سنة كاملة) فأذعن القوم لمقالته ، وانصرفوا لشؤونهم .

* * *

بلغت مقالة (ابن أخطب) رسول الله ، وانقضت الأيام العشرة ، دون أن يخرجوا من ديارهم ، فاستعد المسلمون للحرب وساروا إلى فناء (بنى النضير) يشقون أجواز الفضاء بالتكبير ، وقام اليهود وراء حصونهم ، ومعهم النبل والحجارة ، فحاصرهم رسول الله وقطع نخلهم ، واعتزلهم (قريظة) وخذلهم (ابن أبى) فأيسوا من النصر بعد حصار دام خمسة عشر يوماً ، فاستسلموا وأكل اليأس قلوبهم ، وملك الرعب عليهم نفوسهم ، فأرسلوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن يؤمنهم على أموالهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة ، فصالحهم على أن يخرجوا منها ، ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاؤوا من الطعام والشراب والثياب ، وأن يتركوا الدروع والسلاح ، فرضوا بهذا ... ولما أيقنوا بالجلاء ، حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم ، فجعلوا يخربونها بأيديهم (حتى إن الرجل منهم كان يهدم بيته عن نجاف بابه ، فيضعه على ظهر بعيره وينطلق) وساروا ينقضون العمد والسقوف ، وينزعون الخشب والأوتاد ، وارتحلوا عن المدينة ، وقد تعفروا بغبار الذلة ، وتضرجوا بدم الصغار ...

ورجع رسول الله إلى المدينة ، يحمل ما تركوه من الدروع والأموال والسلاح ، وإذا بوحى الله ينزل عليه بهذه الآيات : (سبّح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم . هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ...)(١)

دمشق — المزة

(١) سورة الحشر

عمر بهجة الخطيب
فتى الفيحاء

اليقين الذى كان متأصلا فى نفسى ... إن تولستوى فى الأدب الروسى مثلا قد وصل إلى أرفع درجات المجد الأدبى وهو يعيش عيشة الأتقياء المترفين ، وإن بيرون فى الأدب الإنجليزى قد أبدع أعظم آثاره الفنية وهو يتقلب فى بحبوحة من العيش لا تهيأ إلا لمن كان فى مثل مركزه الاجتماعى الرفيع ، وتستطيع أن تضيف إليهما بلزاك فى الأدب الفرنسى ، فقد كان يحيا حياة مترفة أثقلت كاهله بالديون ، إلا أنه لم يستطع أن يخرج للناس أروع آثاره القصصية إلا فى تلك الساعات التى كان يقبل فيها على متع الحياة وتقبل عليه .. وقل مثل ذلك عن جيته فى الأدب الألمانى ، وعن شوقى فى الأدب المصرى !

هذه بعض نماذج لعبقريات أغدقت عليها الحياة ففجر منها الإغداق ينابيع البيان المشرق ، وعيون الحكمة الخالدة ، وأنهار الفن الرفيع .. وتعال نستعرض بعد ذلك نماذج أخرى لعبقريات لم تلق من الحياة إلا صنوفاً من الفاقة وألوان من الحرمان ، لنرى أن الأثر الذى خلفته هنا لا يقل عن الأثر الذى خلفته هناك . ولا نعنى بالحرمان هنا ذلك الذى تعارف عليه الناس حين حصروه فى معناه الضيق ولم يتعدوا به نطاق الماديات ، كلا . وإنما نتعداه إلى شتى معانيه فى نطاق الماديات والمعنويات ... هناك حرمان يتمثل فى ذلك الأعمى الذى لم تشأ له الحياة أن يرى ضوء النهار ، وهناك حرمان يتمثل فى ذلك الأصم الذى حالت القادير بينه وبين الإنصات لموسيقى الطبيعة ، وهناك حرمان يتمثل فى ذلك المصدور الذى ينفث دماً ولا يعرف طعم العافية إلا من أفواه الناس ، وهناك حرمان يتمثل فى ذلك المجنون الذى قدر له أن يشرف على الوجود بإحساس الفكر التائه والوعى الذاهل !

نعم ، هناك ملتن رسل أعذب أنغامه وأرق أغانيه وهو محروم من نعمة البصر ، وهناك بيتهوفن يدفع إلى سمع الزمان بسحر موسيقاه وهو محروم من نعمة السمع ، وهناك كيتس يبعث إلى الصدور بدفء أشعاره وهو صاحب الصدر المحطم الذى لون قصائده بلون دمائه ، وهناك موباسان يخرج للدنيا من وراء العقل المفقود ومضات من العبقرية المبدعة قبل أن تجد لها مثيلا عند فنان سواه ...

وكم فى رحاب الحرمان المادى من عبقريات أخرى لقيت من ضروب البؤس والشقاء ما ينوء منه الصبر وتحور معه العزائم ومع ذلك فقد كتب لآثارها كل بقاء وكل خلود ... وما أشبهها بالمعادن الكريمة بصفو جوهرها تحت وهج النار فى بوتقة الزمن!

نخرج من هذا كله بأن العبقريات معادن ... بعضها يتوهج فى ظلال الترف والنعيم ، وبعضها يتأجج فى رحاب الفاقة والحرمان وبعضها يخبو بريقه إذا ما انتقل من حال إلى حال ؛ فأديب مثل مكسيم جوركى كان يعانى أبشع ألوان البؤس الإنسانى فى أيام الحكم القيصرى ، ولكنه كان فى تلك الأيام الحافلة بالشقاء مثلا رائعاً للفنان الملهم .. ولقد بلغ من الفاقة حداً جعل الكاتب الإنجليزى ويلز يترك له كثيراً من ملابسه يوم كان يزور روسيا ليلقاه ويتحدث إليه ؛ لقد ترك ملابسه للفنان الذى أعجب به كما لم يعجب بأحد سواه !

ولما قامت البلشفية على أنقاض الحكم القيصرى خمدت الجذوة المتوهجة بلهيب الفن ، لأن صاحبها قد انتقل من الجحيم إلى النعيم . ويقرر بعض النقاد المعاصرين وعلى رأسهم هربرت ريد أن كتابات مكسيم جوركى فى أيام بؤسه وشقائه ، لا يمكن أن ترقى إليها كتاباته فى أيام الترف وإقبال الحياة ... !

وهكذا كان حافظ إبراهيم فى الأدب المصرى ... كان شعره يتدفق من أعماق الحرمان قوياً ، صادقاً ، معبراً ، نابضاً بالحياة ؛ فلما دفع به إلى دار الكتب وذاق جيبه طعم الذهب ، واستمرأت نفسه حياة النعيم ، نضب فيه معين الشعر وجف نبع الشعور .. ولما حاول بعض عشاق فنه أن ينطقوه كان قد أصمى !

إن العبقريات كما قلت معادن ... بعضها يتوهج فى ظلال الترف والنعيم ، وبعضها يتأجج فى رحاب الفاقة والحرمان ، وبعضها يخبو بريقه إذا ما انتقل من حال إلى حال ؛ وتلك أمور نقررها على هدى الدليل وفى ضوء المثال .

أنور العداوى

اطلب كتاب

تولســـتوى